مصارع الخلفاء

مشاهد رائعة نقلها عن التاريخ

ك . ك

« ولو علم بنو مروان أنهم انما يوقدون على رضف يأكلونه في اجوافهم ما فعلوا » « الوليد الثاني »

(١)

مصرع مروان الجعدى

أو « حمار الجزيرة »

« وطعنه رجل من أهل البصرة ، وهو لا يعرفه فصرعه ، فصاح صائح : « صرع أمير المؤمنين ! » وابتدروه ، فسبق اليه رجل من أهل الكوفة — كان يبيع الرمان — فاحتز رأسه! »

« المؤرخون »

---

(١) هو مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ويلقب بحمار الجزيرة ، ويكنى أبا عبد الملك ، كانت ولايته ، من حين بويع الى أن قتل خمس سنين وعشرة أشهر وستة عشر يوما ، وكان قتله يوم الاحد لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ١٣٢ ، وكانت سنه يوم قتل اثنين وستين عاما — في قول بعض المؤرخين ، وكانت موقعة « الزاب » المشهورة ، قضاء مبرما عليه وعلى جيشه ، فقد اندحر مروان فيها يوم السبت لاحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة ١٣٢ ، وقد اقترن مصرعه بمصرع الدولة الاموية فكان مصرعا مزدوجا ، وسنجمل في مقال الشهر التالي أهم الاسباب التي تضافرت على انجاز هذين المصرعين ، مصرع الدولة الاموية ومصرع مروان الجعدي ! »

(١) طلائع الثورة

فراخ عامين ، إلا أنها كبرت لما يطرن ، وقد سربلن بالزغب
فان يطرن — ولم يُحتل لهن بها — يلهبن نيران حرب ، أيما لهب

« نصر بن سيار »

ولكن الفراخ كبرت وطارت ولم يُحتل لها ، فصحت نبوءة « نصر بن سيار » والهبت نيران حرب شعواء ، ذكا أوارها واندلع لهيبها ، فكان وقودها مروان الجعدي والدولة الأموية معاً ، ولم تخمد جذوة هذه النار المستعرة ، إلا بعد أن أتت على الاخضر واليابس ، وغيرت وجه التاريخ ، واحدثت انقلابا هائلا في كل مرافق الأمة العربية وشئونها بقريبا !

لقد رأى « نصر بن سيار » خطر المنافسين يتعاظم يوما بعد يوم ، وشاهد اتباعهم في ازدياد ، ودعوتهم في ذيوع وانتشار ، فلم يدخر وسعا في تحذير الامويين من أعدائهم واحتثاث همهم ليقضوا على الثورة وهي في مهدها ، وكان يرى نجاح دعوة أبي مسلم الخراساني واتساع نطاقها ، فيبعث التحذير بعد التحذير ، والانذار تلو الانذار ، حتى بح صوته وذهبت صيحاته كلها أدراج الرياح !

ولعل أحدا لا يجهل أبياته الصادقة التي ختم بها إحدى كتبه التي بعث بها الى مروان الجعدي ، حين رأى انتشار الدعوة الى بني العباس وذيوعها في خراسان سنة ١٢٩ ، وهي قوله :

أرى خلل الرماد وميض جمر فأحجر بأن يكون لها ضرام
فان النار بالعودين تُذكى وان الحرب ، مبدؤها الكلام
فقلت — من التعجب — « ليت شعري ! أأيقاظ أمية ، أم نيام ! »

ولكن بني امية كانوا نياما عن عدائهم ، منهمكين في اشباع شهواتهم الحقيرة مشتغلين بالانتقام بعضهم من بعض ، لا هم لهم الا التباغض واثارة الفتن الداخلية بينهم حتى جاءهم أمر الله فاحتى ملكهم من المشرق ، وقضى عليهم قضاء مبرما في سنة ١٣٢ هـ وصدق قول القائل : ولكل اهل بيت مشائيم ، يغير الله النعمة بهم » و « لن ينتقل سلطان قوم قط الا في تشتيت كلمتهم ! » وصح فيهم قول من قال :

أوتيت ملكاً ، فلم أحسن سياسته كذلك من لا يسوس الملك بخبله

(٢) موقعة الزاب سنة ١٣٢ هـ

« كل شيء قاتل حين تلقى أجلك ! »

ليس أدل من هذه الموقعة على الفوضى الضاربة أطنابها في جيش الامويين والتخاذل الشامل ، وسوء الرأي ، فقد تجلت في هذه الموقعة صفات الذلة والاحجام في أكثر الجيش الأموي واضحة جلية ، كما تجلى فيها ارتباك مروان وخوره ، وتوانيه في رسم خطة يسير عليها جيشه قبل أن يلتحم في المعركة ، وكان لاحجام قواده ومخالفتهم أوامره أسوأ النتائج وابعد الاثر في هزيمتهم الشاملة ، أما « الوليد بن معاوية بن مروان » صهر « الجعدي » فقد أذكرتنا حماقته وغروره ، بصهر عثمان رضي الله عنه ، وما أبداه من خرق في مخالفة رأيه !

لقد أمر « الجعدي » جيشه ألا يبدأ بالقتال ، وقر رأيه على ذلك

ولكن صهره الاحمق « الوليد بن معاوية » بدأ القتال فحمل على الميمنة فاشتبكت الحرب — على رغم الجعدي ، واستعرت لظاها فجأة أيما استعار ، ونفذ قضاء الله

وهنا ، يسرع « مروان الجعدي » — بعد أن نفد السهم ، فيقول لقضاعة : « احملوا » فيقولون له : « قل لبني عامر فليحملوا ! »

فيرسل الى « الكوّن » أن احملوا ، فيقولون : « قل لغطفان فليحملوا ! »

فيقول لصاحب الشرطة : « انزل ! » فيجيبه : والله ما كنت لاجعل نفسي غرضاً ! »

فيقول له الخليفة متوعداً : « أما والله لأسوءنك ! »

فيجيبه صاحب الشرطة هازئا : — « وددت والله أنك قدرت على ذلك ! »

ثم زاد ارتباك مروان ، وتعاظم خباله ، أمام جيش الخراسانيين ، فكان — كما يقول المؤرخون — لا يدبر شيئاً إلا كان فيه الخلل والفساد ! »

أراد أن يشجع رجال جيشه — وهم يقتتلون — فأمر بأموال فأخرجت ، وقال للناس : « اصطبروا وقاتلوا فهذه الاموال لكم »

فانكمشت الآية ، وهافتت فئة منهم على ذلك المال فجعلت تصيب منه ! »

فلما قالوا له : « ان الناس قد مالوا عن هذا المال ، ولا نأمنهم أن يذهبوا به » أراد أن يتدارك هذا الخطأ ، فوقع فيما هو شر منه : فقد أرسل الى ابنه « عبد الله » أن يسير في صحابته الى مؤخر عسكره فيقتل من أخذ من ذلك المال ويمنعهم ! »

فماذا كانت النتيجة

رأى الناس « عبدالله » وقد مال برايته وأصحابه ، فحسبوهم ولّين فصاحوا « الهزيمة » فكانت الهزيمة الشاملة !

وبمثل هذه التصرفات العجيبة المريبة الخاطئة ، اندحر الجيش الأموي وانهزم مروان في موقعة « الزاب » شر هزيمة

قالوا : « وقطع الجسر ، فكان من غرق يومئذ أكثر ممن قتل !

(٣٠) فرار الخليفة !

« كذبتم ! أمير المؤمنين لا يفر ! »

قالوا : « وانهزم مروان حتى أتى مدينة الموصل ، فناداهم أهل الشام : « هذا مروان ! » فقالوا : كذبتم أمير المؤمنين لا يفر

طريق الفرار

ولكن أمير المؤمنين قد فر وامعن في فراره ، فما كاد يستقر بموضع حتى تداهمه طلائع العدو ، فيغادره هاربا الى موضع آخر

فر الى « حران » فأقام بها نيفا وعشرين يوما ، ومضى منهزما حتى مر بقنسرين و « عبدالله ابن علي » متبع له ، ثم هرب « مروان » الى « حمص » فأقام بها يومين أو ثلاثة ، ثم بشخص منها وهو مرعوب منهزم ، ومضى حتى مر بدمشق ، وتركها حتى قدم « فلسطين » وتابع فراره حتى وصل الى مصر

(٤) مطاردته في مصر

وجاء كتاب « أبي العباس » يأمر بتوجيه « صالح بن علي » في طلب « مروان » فسار صالح بن علي في ذي القعدة ، حتى نزل بالرملة ، وسار « صالح » بجيشه حتى نزل ساحل البحر وتجهز يريد « مروان » الهارب « بالفرماء » حتى نزل صالح

« بالعريش » فقاتلهم « مروان » بذلك أحرق ما كان حوله من علف وطعام وهرب ، قالوا :

ومضى صالح بن علي فنزل النيل ، ثم سار حتى نزل الصعيد وبلغه أن خيلا لمروان بالساحل يحرقون الاعلاف فوجه اليهم قواداً ، فأخذوا رجلا فقدموا بهم على « صالح » — وهو بالفسطاط ، فعبر « مروان » النيل وقطع الجسر وحرق ما حوله ، ومضى « صالح » يتبعه ، فالتقى — هو وخيل « لمروان » على النيل فاقتتلوا ، فهزمهم صالح

وهكذا ظل يطارده « صالح » حتى اهتدى الى مكانه الذي لجأ اليه في كنيسة « بوصير »

خاتمة مروان — كيف صرع ؟

قالوا : فوافوهم في آخر الليل ، فهرب الجند ، وخرج اليهم « مروان » في نفر يسير ، فأحاطوا به !

قالوا : وطعنه رجل — من أهل البصرة ، وهو لا يعرفه فصرعه

فصاح صائح : « صرع أمير المؤمنين »

وابتدروه ، فسبق اليه رجل من أهل الكوفة كان يبيع الزبان فاحتز رأسه !

* * *

وهنا يروي لنا بعض المؤرخين ، رواية أقرب الى القصص والخيال ، وان كانت غير مستحيلة الوقوع ، فيقول :

انهم لما أحضروا رأسه قدام « صالح بن علي » أمر ان ينفض فانقطع لسانه ، فأخذه هر

وأرسله « صالح » الى السفاح وقال :

قد فتح الله مصر عنوة بكم ... وأهلك الفاجر الجعدي إذ ظلما

وذاك مقوله ، هرّ يجره ... وكان ربك من ذي الكفر منتقما

قالوا : (ولما وصل الرأس الى (السفاح) وهو بالكوفة سجد شكراً لله !)